المقتبس

رمضان سنة ١٣٢٧

غرائب الغرب

حالة مصر (٦)

هبطت مصر وهي اليوم ليست بعيدة عنا بعشرة عشر شهراً وكنت صرفت فيها اربع سنين ايام الحكم الاستبدادي في المملكة العثمانية فلم ار اليوم والا عابر سبيل ان امكث فيها اقل من اربعة عشر يوماً قضيتها بين مشاهدة من حلقتهم فيها من الاصدقاء الكليزيين . والقاهرة من البلاد العربية كباريز من البلاد الافرنجية حوت ما في العواصم من ضروب الرقي والانحطاط مما تحفه على عيرها طوعاً او كرهاً ويأتي الناس من القاصية فيأخذونه عنها ويهتمون بتقليده وتأييده

ان من ينظر الى مصر نظراً سطحياً يأسف لها كثيراً ويعدها كنزاً ضائعاً ودماً ضيعه اهله . ومن يمعن النظر في مواردها ومصادرها ويدرس مساعيها ومقاصدها ويقيس النتائج بالمقدمات والماضي بما هو آت يدرك ان المستقبل الخير لمصر في حياتها الاجتماعية والسياسية لا يقل عما احرزته في حاضرها من المغانم المادية والادبية اذا نالت عناية اهلها متوفرة على التعليم والتربية وتم يتفنون سنة عن اخرى في تلقف ما يفهمهم من انواع المعارف

لقيام بناء مجدهم الجديد على احسن نظام

ليس في اقطار الشرق ولا في اقطار الغرب بلد عرف تاريخه كما عرف تاريخ مصر ولا بلد مثلها يبقى على آثاره الخالدة ويحتفظ بتراثه القديم فنفع العلم والعالم بما ادخره .

فقد قال لنا التاريخ ان عهد بعض سلاطين فراعنتها كان عهد ارتقاء ومدنية وان مدنيتهم لاتقل من وجوه عن المدنية الرومانية واليونانية والفارسية فكانت دولة فاتحة غازية مستعمرة كما كانت دولة فاضلة متحضرة وانه جاء زمن طويل على مدينة الاسكندرية ايام الروم كانت تفيض العلم الناقع على العالم اجمع بمدرستها كما كانت تفيض العلم مدرسة بغداد ومدرسة قرطبة ايام الخلفاء وكما تفيض كليات اوربا واميركا على آسيا وافريقية اليوم

اتى على مصر دور انحطاط بعد دولة الفاطميين اشتغلت فيه بنفسها وكان حظها من المعارف حظ سائر بلاد الاسلام وان كانت لها الميزة ابداً في هذا الباب على الاقطار المجاورة فقد كانت على عهد الايوبيين والجراكسة والمماليك على انحطاطها مورداً تستقي منه البلاد الاخرى وكانت العلوم الاسلامية والادبية خاصة مما يحمل من ازهرها الى شمالي افريقية وداخليتها وبلاد العرب والترك وسورية وغيرها . ولما جاء نابوليون الاول ثم محمد علي الكبير دخلت فيها بواسطة علمائه من الفرنسيس روح الحضارة الغربية واسلوب التعاليم الاوربية واخذت حكومتها ترسل بالبعثات العلمية بل بالبعوث السلمية الى اوربا ليدرس الشبان في كلياتها ثم يعودوا الى مصر فينفعوها بما علمهم الله والبشر الراقي

وما برحت هذه الارساليات تكثر ومصر الحديثة تتكون على الماضي

الغربية حتى جاء الخديوي اسماعيل واسرف في ملفا اسراف جنون وجهل فاضطرت الى الاستدانة من الماليين الاوربيين واكثرهم انكليز وفرنسيس ولما حدثت الفتنة العرابية وجدت انكلترا مدخلاً لمداخلة ان ارباب الاموال يوجسون خيفة على اموالهم ورأت من فرنسا غفلة او تغافلاً فعملت وحدها على اطفاء الفتنة فصدقت عليها كلمة نابوليون في قوله وقد اخرجته انكلترا من مصر بعد احتلاله لها بضع سنين في القرن الماضي انها لم تخرجنا منها الا لتأخذها لنفسها في المستقبل .

دخلت انكلترا مصر لاطفاء الفتنة اولاً ثم للمحافظة على ترعة السويس التي اصبحت اكثر اسهمها لجماعة من ابنائها . والترعة كما هو المعلوم طريق الهند الاقرب ومادة حياة دولة البحار . ومن حافظ على سلامته ومادة حياته يعذر

ولقد كان ميدان الاصلاح فسيحاً امام المحتلين لتوفر الاسباب الطبيعية لمصر وان بلاداً لا ينقطع ماؤها ولا تغيب شمسها ولا تنضب تربتها ولا تتعاصى على الانسان طبيعتها لأقرب البلاد الى معالجة الاصلاح في مجاهلها ومعالمها .

ولما استتب الامن في انحاء القطر اقبل ارباب الاموال من الغربيين وغيرهم يتجرون ويزارعون ويؤسسون المشاريع العمرانية فكانت تلك الحركة نافعة في نهضة القطر الاخيرة نهضة اقتصادية كهربي حسدتها عليها بلاد كثيرة .

تهيأ لمصر والحق يقال من رجال الاحتلال الذين عملوا باخلاص لتحسين زراعتها وريها وتنظيمها لينتفع من ذلك البريطانيون والمصريون معاً . وكان

عميدهم الاكبر لورد كرومر الذي ادار دفة السياسة المصرية اربعاً وعشرين سنة ارخى في خلالها عنان الحرية الفكرية والاجتماعية فهاجر الى مصر كثيرون من المشارفة . عمل هذا وغيره من الاعمال النافعة ولكنه كان يحاول ان يقف بالمصريين عند حد الاشتغال بالزراعة ثم بالوظائف القليلة التي لاتسمح الحال الا باعطائها للمصريين وماعدا ذلك من الارتقاء العقلي والسياسي فقد كان اللورد يقول لهم كل سنة تصريحاً وتلويحاً في تقاريره السنوية انكم لا استعداد لكم معاشر المصريين لغير ذلك من الاعمال قبل نسيتم ماضيكم ايام كنتم تساقون الى السخرة سوقاً وتستعبدون استعباد العبيد والارقاء ايام الحكومات الماضية المدمرة فاحمدوا الله على ان انجاكم مما كنتم فيه فحالكم الآن احسن من ماضيكم مئة مرة فعليكم ان تقنعوا بما حزتموه .

ولكن نبهاء مصر لم يفتهم معنى هذه السياسة وكان الفضل الاكبر لجرائد في تنبيه شعور الامة المصرية الى ان وراء ماهم ممتعون به الآن مطلباً اسمى وانهم قاموا يسعون اليه سعيهم وهم على اختلاف في الطرق الموصلة اليه لايختلفون في كون بلوغه لايتأتى الا من طريق التعليم والتربية

فبذل اهل الاقتدار المالي ماسمحت به نفوسهم من انشاء الكتاتيب في الارياف والمدن حتى اسفرت النتيجة بعد بضع سنين عن تكثير سواد القارئين والكاتبين ثم رأوا ان الامة لاترقى الا اذا كان فيها افراد يحسنون تعليم الامة بلغتها مايلزمها من المعارف المادية والاقتصادية والاجتماعية فسعوا الى اقناع الحكومة بجعل التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية باللغة العربية وكان اكثره بالانكليزية من قبل ثم رأوا انه اذا لم يكن لهم من ابنائهم

من يعلم العلم العالي سبب ارتقاء الامم لايكون العلم الا عقيماً ناقصاً فانشأوا لذلك المدرسة الجامعة المصرية وهم اليوم يعلمونها لتكون بعد سنين على مثال الجامعات الاوربية تدرس علوم الجامعات الافرنجية باللغة العربية وفي اول جامعة من هذا النوع امة لايقل الناطقون بها عن ستين مليوناً من البشر

نعم ان الجامعة المصرية اليوم وما دخل من الاصلاح على الازهر ومدرسة القضاء الشرعي ومدرسة دار العلوم ومدرسة الحقوق ومدرسة الطب ومدرسة الهندسة والزراعة وسائر المدارس الاميرية والخصوصية هي التي تتألف منها اليوم طبقات رجال مصر الحديثة ولا بد لهذا الامر من آخر ولمساعيهم الحسنة من لذيذ الثناء اذا سلك القوم سبيل التؤدة وعلقوا اعلامهم على قانون العقل الصحيح واستفادوا التجارب الامم السالفة والصناع الناهضة وحدهم ولم يزق الجهال للغوغاء وبذلك تصح اسباب القوة المادية والمعنوية في بلادهم على مستوى ماهي عليه عند الامم الحية حقيقة لا مجازاً

لاجرم ان المصريين بما فيهم من الذكاء وما ورثوه من حضارتهم القديمة وتيسر لهم من الرقي المادي هم بمجموعهم ارقى من مجموع الشرقيين كل عند اليابانيين وفيهم اليوم من العقلاء المفكرين العالمين والباحثين من ليسوا دون ابناء طبقتهم في الغرب وربما فاق الاتراك المصريين في الامور السياسية والحربية .

ولا يعاب على مصر الا فتور همة ابنائها في منتصف الطريق في الاغلب وهذا الخلق يكاد يكون عاماً في القطر لايقوى في التغلب عليه الا التربية العملية . وحبذا يوم نرى فيه مصر تقبل على تعلم العلوم الطبيعية والكيمياء والميكانيك والمعادن مثلاً اقبالها على تعلم الحقوق مثلاً فقد نرى من يشتهم

زهاء خمسمائة طالب في كليات اوربا واميركا والقسم الاعظم منهم يدرسون الحقوق ليترشحوا منها الى الوظائف لانه وقر في النفوس ان فن المحاماة اكثر عائدة على صاحبه من غيره من الفنون خصوصاً وهو متوقف بعد العلم النظري على طلاقة لسان وفضل بيان والمصريون اكثر العرب حظاً من تينك المزيتين .

اصبحت مصر بمجموعها اليوم قطعة من اوربا كما قال الخديوي اسماعيل ولكن اصحابها يريدون لها ان تكون كاوربا في صفاتها العالية وحضارتها الراقية حتى لاتخرج املاكها بطيش الطائشين من ابنائها الى ايدي الغريب فيعود المصري بعد بضع سنين والعياذ بالله كالغريب في بلده وما اصعبها من حالة

ان مسألة الراية التي تخفق على امة لاتهم بقدر ما تهم في الحقيقة مسألة الاملاك اذ انه مهما يلم من حيف امة فاتحة او مستعمرة لاتحدثها نفسها ان تنزع من المالك ملكه الا برضاه . ومصر التي تأذى اليوم بوطأة الروسي والطلياني والانكليزي وغيره لاتستقل بعض املاكها منها الا برضى اولئك الوارثين والمسرفين الذين لايعرفون دخلهم من خرجهم ولا دينهم من دنياهم هذه هي الفئة الضالة المضلة في هذا القطر المحبوب ومنها يخشى على مستقبله فبقلة عقول المستهترين اصبحت نحو تسعة اعشار الاطيان والاملاك في مصر للغرباء وعليها مائتان وخمسون مليون جنيه من الديون منها نحو مئة مليون دين الحكومة ولا نعرف متى توفيه والباقي على عنق الفلاح الصغير والمزارع الكبير .

ان مانخشاه على مصر هو الاسراف الزائد وتقليد الغربي على العمياء ولو كان لاهل وادي النيل شيء من الامساك المحمود والاقتصاد المعقول

اذا كانت حال مصر السعيدة ارقى مما هي اليوم . ومن حاز الثروة وقانون الحكمة يدبرها والحكمة قائدها ورائدها وانتظر الفرص التي لا يزال الدهر يخبأها للافراد كما لا يخل بها على الامم لابد ان يتمتع يوماً بالسعادة السياسية والاجتماعية التي هي منتهى آمال كل امة حية في هذا الوجود

٧

مرسيليا

في الساعة الرابعة بعد الظهر اقلعت بنا من الاسكندرية الباخرة ايكواتور (خط الاستوا) احدى بواخر شركة المساجري ماريتيم الفرنسوية فبلغنا ثغر مرسيليا اكبر موانئ فرنسا على البحر المتوسط والمحيط والمالش في اليوم السادس الساعة الخامسة بعد الظهر ولم نر في طرفنا شيئاً يستحق الذكر سوى بعض سواحل ايطاليا وفرنسا وقد تجلت عن بعد وكان نظرنا يختلف اليها بقدر بعدنا او قربنا منها ودام البحر رهواً حتى اذا خرجنا من مضيق مسينا اصبحنا واصبحت سفينتنا على كبرها وطولها وعرضها اللعوبة العواصف والتيار يتقاذفنا من كل مكان حتى لم يبق راكب في درجات السفينة الاربع الا وقد اخذه الدوار او كاد ولم تملك حواسنا الا عند بلوغنا ساحل السلامة

وقوة هذه الباخرة ٢٩٨٧ حصاناً ومحمولها ٣٨٤٨ طناً وتقطع في الساعة اثني عشر ميلاً وهي احدى بواخر الشركة التي تغدو وتروح بين موانئ البحر الابيض والبحر الاسود والبحر الاحمر وبحر الادرياتيك ولهذه الشركة التي جعلت رأس مالها خمسة واربعين مليون فرنك تسع عشرة باخرة من مثل هذه خصت سيرها بالبحرين الاولين في الاغلب . ومن موانئها التي تقف

عليها بواخر الميساجري ماريتيم خانيا وسلانيك والاستانة وجناق قلعة وازمير ومدانيا وفاقي ولارنكا ومرسين والاسكندرونة واللاذقية وطرابلس الشام وبيروت ويافا وحيفا ورودس والاسكندرية وطرابلس الغرب وصمصون وطرزون وبورسعيد والسويس ولولا امثال هذه البواخر الفرنسوية والنمسوية والروسية والايطالية والانكليزية والالمانية والرومانية لما بقيت لنا تجارة تصدر من بلادنا وترد اليها وتعذر التنقل الا في السواحل على ظهور الجمال والبغال والحمير او في المركبات وبعض القطارات القليلة التي تربط اجزاء مملكتنا بعضها ببعض

ولشركة الميساجري ايضاً اثنتان وعشرون باخرة تمخر العباب الى الهند الصينية وتوابعها وخمس بواخر لخط الكوشنشين وست بواخر لخط اوستراليا وخاليدونيا الجديدة وخمس بواخر في المحيط الاطلانطيكي (الظلمات) وسبع اختصت بالبحر المحيط الهندي وذلك ماعدا السفن الصغرى التي جعلتها في بعض الموانى الكبرى . واشغال الشركة متوسطة مع ان حكومة فرنسا تدفع اليها اعانة مالية كل سنة لقاء نقلها البريد بين الشرق والغرب وخدمة الجمهورية فيما يلزمها .

ويقول الذين سافروا مرات بين بلادنا وبلاد الغرب ان البواخر الالمانية والانكليزية والطليانية تفوق بانتظامها وحسن خدمتها البواخر الفرنسوية وان الراكب يجد راحته في تلك اكثر من هذه مع ان الاجور واحدة ولذلك اضطرت هذه الشركة وغيرها الى تخفيض الاجور في الصيف الى نحو النصف لركاب الدرجة الاولى والثانية والثالثة واخذت تحسم خمسين في المئة لكل شخص ثالث كان مع شخصين يدفعان القيمة المقررة فاذا كانوا

اربعة فاكثر تحسم الباقي فما بعده خمسة وسبعين في المئة وبذلك يسهل السفر في الصيف لاعتدال اجوره .

ومن التسهيلات التي قامت بها هذه الشركة ان اتفقت مع شركات البواخر الانكليزية والاميركية وشركات السكك الحديدية على ان تنقل الركاب الى الموانئ التي تختلف اليها بواخرها وتلك الشركات تنقلهم على بواخرها بحيث يطوفون العالم مجتازين من نصف الكرة الغربية الى النصف الشرقي والاجرة في ذلك معتدلة فيسلك الراكب ان احب احد الطرق التي يختارها في قطع البحور والبر وطريق الاولى عن موانئ الصين واليابان وكندا مارّاً بفانكوفر وهو يكلف في الدرجة الاولى ٣٢٨٨ فرنكاً والطريق الثانية لوسترالية وفانكوفر ويكلف في الدرجة الاولى ايضاً ٣٥٧٥ والطريق الثالثة الى اوسترالية فضيق توريس فاليابان فنانكوفر واجرتها ٤٢٥٧ في الدرجة الاولى والطريق الرابعة عن طريق الصين واليابان وسان فرنسيسكو وتكلف ٣٢٨٨ فرنكاً والطريق الخامسة الى اوسترالية ومضيق توريس واليابان وسان فرنسيسكو وتكلف ٤٢٥٧ فرنكاً في الاولى فيركب الراكب من مرسيليا الى هونغ كونغ على بواخر شركة المسا جري عن طريق السويس وجيبوتي اوعدن وكولومبو وسنغافور وسايغون ومن هونغ كونغ الى شنغهاي الى كوبي فيوكوهاما على بواخر الشركة او على بواخر شركة الباسيفيك الكندية بحسب مايختار الراكب ومن يوكوهاما الى فانكوفر على بواخر الشركة الكندية ومن هناك يركب القطار الى كيبك ومونتريال وهاليفاكس وسان جون او نيويورك ومن نيويورك الى ليفربول او ساوثمتون على احدى البواخر الانكليزية او الاميركية او الفنسوية او من نيويورك الى الهافر على

بواخر التراسلانتيك ومن الطائر بالسكة الحديدية الى باريز .

هذه هي المسافات التي يقطعها من يريد الطواف حول الارض والرقال قائل هذا لاحد اجدادنا الاقدمين وقال له انني اريد السير للنزهة على هذه الكيفية فنسب اليه الجنون وقال ان ذلك لن يكون ولكن اذا عرف سر الاسفار في هذه الاعصار يقول سبحان من سخر لنا قطع البحار بالبخار يفعل مايشاء ويختار .

وبعد فلم يتسع لي الوقت لادرس جميع معالم المدنية في مرسيليا لاني لم اصرف فيها الا ثلاثة ايام قضيت اكثرها في الراحة من وعثاء السفر الذي طال علينا احدى عشرة ساعة زيادة على المعتاد لمصادفته الباخرة في طريقها من الانوار وبطاري طراً على آثارها في عرض البحر فاصلحتها وليلا ذلك لقطعت باخرتنا المسافة بين الاسكندرية ومرسيليا في خمسة ايام بلياليها لا تنقف قرب البابية . ومن البواخر الانكليزية مايقطع المسافة بين بور سعيد ومرسيليا في اربعة ايام وهذه البواخر خاصة بالبريد الانكليزي تقله من اوستراليا والهند الى الجزائر البريطانية في خمسة وثلاثين يوماً لانكاد تستريح في طريقها الا بقدر ماتحمل زاداً ووقوداً وركاباً والمسافة المعتادة بين اوستراليا وانكلترا لاتجتازها الشركات المعتادة في اقل من سبعين يوماً .

قامت مرسيليا في منقطع وادي الرون الجميل فكانت جملة الجمال الفرنسوي بما فيها من الجبال والسهول وما احرزته من مجد قديم وغنى حديث وان محيطها الذي لاتقل مساحته عن مئة كيلومتر مربع لاحلى من العاقية في بدن السقيم او النضارة في خدود الجواري — كما يقول بديع الزمان — استغفر الله بل كاد يكون اجمل من الحور الذي تقرأوه في عيون

المرسيليات الدمج . ولعل جمال العيون في النساء هنا التي فاقت عيون البدويات الرعايب انتقلت اليهن من اجدادهن العرب فقد قال ميشله المؤرخ ان اصل سكان مضايق الرون مختلط كثيراً ففيه العنصر السلتي واليوناني والعربي وخليط من الطليان والغالب ان سكان جنوبي اوربا يوصف نساؤهم بدعج العيون وسواد الشعور كما يوصف الشماليات بزرقة العيون وشقرة الشعور .

والى اليوم يكثر في مرسيليا الغرباء ولا سيما الطليان ففيها ٥٠ الفاً من السكان خمسهم من الطليان ويليهم كثير من الصناعات والعاملين وهم عشر الاجانب في فرنسا وكان في مقاطعة مرسيليا سنة ١٩٠٦ : ٧٦٦٥٠٠ ساكن منهم ١٣٣٥٠٠ اجانب وفيها ٢١٨ مدرسة وفي مقاطعتها ٢١٧ كيلومتراً من الخطوط الحديدية و ١٦٣ كيلومتراً من الترام و ٢٨٤ من الطرق الاهلية و ٣٦٨٣ كيلومتراً من طرق العجلات الموصلة بين اقاليمها

واهم صناعاتها عمل الاقمشة وتحضير الاطعمة والمأكولات وصنع القرميد ثم تلك تجارتها الهائلة وزراعتها التي لا تختلف في الرقي عن زراعة عامة البلاد الفرنسوية وفيها دور صناعة للاساطيل والبواخر التجارية ولا سيما دار صناعة الميسيجري ماريتيم

قال من كتبوا عن مرسيليا من المؤرخين ان تاريخها من اقدم التواريخ وهي اول ميناء بحرية لفرنسا يرد عهد انشائها الى القرن السادس قبل المسيح وفي مقاطعتها اليوم ٤٩ الف منزل منقسمة بين الى شارع وطريق ومعالم آثارها ومصانعها حديثة النشأة من عهد السلالة المالكة الثانية ومن احسن منتزهاتها الكورنيش الذي انتهى سنة ١٨٦٣ وكان عدد السفن التي دخلت

مرفأها البالغ سطحه ٣٠٠ هكتار سنة ١٩٠٧ — ١٦٣٣٠ وعدد الركاب ٥٥٠ الفاً وقدروا مايدخل اليها ويخرج منها في اليوم بسبعة واربعين باخرة وبارجة وناهيك به من عدد .

ويطبع فيها وينشر ١٤٦ جريدة ومجلة . وجريدة البتي مارسيليه (المرسيلي الصغير) اوسعها انتشاراً تطبع ١٨٠ الفاً كل يوم وهو في حجم الماتين والايكودي باري كما يطبع البتي باريزيان (الباريزي الصغير) الذي يصدر في باريز مليوناً ومائتي الف نسخة في اليوم والثاني اكثر جرائد فرنسا انتشاراً . فكأن لهذه الاسماء الصغيرة من حسن التوفيق ما لايخالف الاعمال التي تبدأ بالالقاب الضخمة والاسماء الفخيمة .

زرت ادارة البتي مارسيليه فرأيت النظام مستحكماً في كل مايتعلق بها وهي اليوم في السنة الثالثة والاربعين من عمرها وقدم منها بل اقدم جرائد مرسيليا « السيافوردي مارسيل » انشئت سنة ١٨٢٧ وهي من الجرائد الجدية المعتبرة الا انها اقل انتشاراً . وهذه الجريدة تباع في مقاطعة الرون وما اليها مثلاً فلو فرضنا ان مايطبع من جرائد مرسيليا ومجلاتها يبلغ كل يوم مليوني نسخة لاصاب كل فرد في مقاطعتها جريدتان ونصف على اقل تعديل هذا عدا الجرائد الباريزية وغيرها التي ترد على مرسيليا وتباع في شوارعها بالالوف ايضاً .

ومن الاسف العظيم اننا لو احصينا عدد مايصدر من جميع الجرائد والمجلات العربية والتركية والفارسية في البلاد المصرية والعثمانية والايرانية لايبلغ بكميته قدر ماتطبع كل يوم جريدة البتي مارسيليه احدى جرائد ولايات فرنسا . وعلى هذه النسبة قس ولا تخف درجة ارتقائنا وارتقاء الفرنسيس وسجل علينا بالفقر المدقع في كل شيء ، ولا سيما في الامور العقلية

ليون

٨

ماذا يصف القلم من مدينة الفرنسيس وكل فرع من فروعها المدهشة لو تناولته الاقلام الكثيرة وتوفرت على البحث فيه العقول الكبيرة لما كانت الا الى جانب القصور . ثم لو جاء في عصرنا الرحالة ابن حوقل وشاهد مدينة ليون فقط لحوقل واسترجع وقال هذه حضارة ليس لنا في وصفها مطمع ولو اتى المسعودي بقلمه وكله لعجز عن الوصف والتصوير ولو جاء بابن بطوطة لآب من رحلته الطويلة لايحسن املاء ماراى وسمع ولو قام ابن جبير لاعترف بقصور ذوقه وعدم نفاذ طبعه وقال ان هذا الامر وخيال ونحن لانسجل في رحلتنا الا ماتقع عليه ابصارنا ويترامى الى آذاننا وتمسه ايدينا .

وبعد فماذا يصف القلم في ليون أجملها الطبيعي ثم الصناعي . معاملها الحربية ثم مدارسها وكليتها ام النظام شوارعها وجسورها وقصورها وحدائقها ام غناها ومتاجرها وعلاياتها وكنائسها ومصانعها ومعارفها ومكاتبها ومخازنها وحوانيتها وغاياتها واسواقها وخطوطها الحديدية والكهربائية وجسورها الحديدية والحجرية وارصفتها البديعة وساحاتها وحدائقها وانهرها العظيمين الرون والسون اللذين يقطعانها شطرين ويزيدان في بهجتها ما تقربه العين

ماذا نذكر من ليون ثاني مدينة في فرنسا وقد شبهوها بموسكو الروسية في كونها عاصمة دين كما هي عاصمة صناعة وعمل . وعلى جسر ليون مر الصليبيون في القرون الوسطى داعين الى المشرق لانقاذ البيت المقدس من ايدي المسلمين . نعم ماذا نعدد من ليون وبدائع صنع الانسان فيها وما ضمت

من معاهد قديمة وحديثة ومشاهد بهيجة ويالله ماعجب معرض نموذج الانسجة الذي حوى اربعمائة الف نموذج ليس لها نظير في العالم وعرضت على انظار اهل البلاد والسائحين ينتفعون بالنظر اليها ويستدلون بها على تفنن يد الانسان في كسوة الابدان .

اثن حرمت ليون من ميناء بحرية لتصريف مصنوعاتها بسرعة فان البخار البري عوض عليها هذا الحرمان فزاد في عظمتها التجارية ففي كل يوم يمر في محطات سككها الحديدية ١٤٠ قطاراً جائية ذاهبة من انحاء شتى ولاسيما من الشمال الى الجنوب . والمسافة بين باريز ومرسيليا ٨٥٠ كيلومتراً ليس فيها شبر واحد لا اثر للعمران فيه يقطعها القطار بالسير السريع في ١٤ ساعة . وليون على مقربة من نصف الطريق بين باريز عاصمة البلاد ومرسيليا ثغرها والحكومة اليوم شارعة بمد خط حديدي ثالث لتسيير القطارات لان الخطين الموجودين لا يتأتى ان يجري عليهما في كل بضع دقائق اكثر من قطار واحد مخافة ان يحدث اصطدام بين القطارات ويكلف الخط الجديد بين باريز ومرسيليا مئات الملايين من الفرنكات وكل ذلك حتى لا يتأخر راكب ولا بضاعة وتأخذ كل جهة حظها من العمران .

لم تقف ليون عند حد الاعمال الصناعية والتجارية والمالية بل كانت هي التي أسست مصرف الكريدي ليونيه مثلاً من اعظم مصارف العالم . بل لها حظ كبير من النهضة العلمية واثر راسخ في الحضارة الفرنسوية وناهيك بكليتها التي تحوي فروع العلم ولاسيما الطبيعي والحقوق والطب والتجارة يختلف اليها ٢٥٠٠ طالب منهم الاجانب وفيهم نحو خمسين مصرياً اكثرهم يدرسون الحقوق وقليل منهم الطب واقل في التجارة والمصريون حديث

عهدهم بنزول ليون فتخرج في كليتها وقد كثر ورودهم عليها بعد ان تولى المسيو لامبر احد اساتذة مدرسة الحقوق في القاهرة منصبة فعينته حكومته في كلية ليون استاذاً فكان من اثر محبته للمصريين ومحبة المصريين له ان جذب عشرات منهم للتعلم في كليتها وهو يشرف عليهم اشراف الاب على اولاده . وكانت مصر تعتمد في تنشئة اولادها من قبل على كليات الولايات الفرنسوية ولاسيما كلية مونبليه وذلك على عهد الخديوي اسماعيل لانه كان يعتقد ان اهل مونبليه اقل معاداة للانوك وابعد الفرنسويين عن التطرف .

قضيت في ليون يومين لزيارة معالمها ومشاهدة صديقي محمد لطفي افندي جمعة الكاتب الخطيب الغيور فرأيت فيها غاية الرقي الاجتماعي والتكافل الانساني والذوق الفرنسوي وفي مثل مدينة ليون من قواعد البلاد تعرف حقيقة الفرنسيس لما يشهده السائح فيها من السكون والانقطاع الى الاعمال الشريفة فلا يسفون كاكثر سكان العواصم في الانتاب للمكاسب الدنيئة او يرضون بان يكونوا عالة على الحكومة يأخذون رزقهم من خزائنها بالتوظف والاستخدام

وياما ابهج ساحة بلكور (الفناء الجميل) يوم الاحد والرجال والنساء والاولاد غادون رائحون فيها لا تقرأ في وجوههم غير الادب ولا في حركاتهم الا التربية البيتية العالية والتشبع بالنظام المدني المعقول حتى اذا جن الليل يختلف القوم الى دور التمثيل واماكن اللهو والطرب وسماع الخطب والمحاضرات وهكذا ايامهم كنهارهم عمل وراحة واستفادة وافادة اخذوا بحظ واقر من دنياهم ولم ينسوا تعهد آدابهم . فليون بلد طيب امين يسكنه المهذبون العاملون .

ولقد كنت كلما وقع نظري في ليون على شارع عظيم او بناء جسيم تحدثني النفس بسورية فاقول متى يا ترى يكون فيها مثل ما في ليون على الاقل ولو ان عمران ليون وحدها وهي احدى مدن فرنسا وما فيها من قوة مادية وادبية وزعت على سورية من عريش مصر الى الفرات ومن البحر المتوسط الى اقصى بادية الشام وحدود نجد والحجاز لعدت سورية وهي في مساحتها نحو مساحة فرنسا كلها من حيث عمرانها ارقى مدن المعمور ولكن الرزق لا يأتي باتفاق والوجود لا ينتفع به الا من يحسنون استخدام ما فيه من القوى والعناصر .

تحية باريز

٩

سلام عليك مرضعة الحكمة . وربيبة الرخاء والنعمة . وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية . ومحيية المدنية الاصلية في الاقطار الغربية والشرقية . ومعلمة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين . والضرب على ايدي الرؤساء والملاك والمالكين . انت هذبت طبائع البشر حتى غدوا يشعرون بالعطف والذوق وفائدة العلم والعمل . انت كنت في مقدمة العواصم التي ابعثت منها تمجيد العقل بل تأليهه فقضيت بالتقدم له على كل شيء في الوجود . وبالغت في اكرام رجال العقول من ابنائك .

سلام عليك يا عشيقة الابداع والاختراع . وسابقة الاقران في مضمار الانتفاع تحاوت الرياع والبقاع . استخدمت القوى المادية فاحدثت استخدامها واستثمرت القوى العقلية فابدعت في استثمارها . واحييت حضارات الامم

السالفة . وانشأت لك حضارات لا يزال يحسدك عليها اسبق الشعوب الى الترقي مهما تقلبت بك الحال . ويحدون في اوضاعك ماليس يجدونه في اوضاعهم من المرونة والجمال .

سلام عليك يا واضعة حقوق الانسان ومقدمة الاذهان بالتساوي بين الاوطان والداعية الى ذل عروش الجبارين والمخربين . انت لم ترهبك تقاليد ابطال القرون الوسطى . ولا بطش الباطشين من المحافظين عليها . ولم تلقي مسائلك على القضاء والقدر بل اخذت بالاسباب والمسببات فنلت من اراد فتلك . ووضعت من لم يهمه رفعك . وكنت للماهضين من الناس خير مثال .

سلام عليك يا معهد المعارف والصناعات بما انشأته من مجامعك العلمية ومدارسك الجامعة والكلية . ومجالسك العامة والخاصة . وجمعياتك ونقاباتك لخدمة المدنية والانسانية . ودور تمثيلك ومعاهداتك وسماعك . ومتاحفك وحدائقك ومكاتبك ومعارضك . وكل ما ابدعته افكار ابنائك وايديهم ودل على مجد طريف وتالد وتاريخ على جبين الدهر خالد

سلام عليك يا مناقضة الخلق معنى الاخاء والحرية والمساواة ليتعاشروا بالمعروف ويقوم نظام اجتماعهم على تبادل المنافع حتى لا يبقى تمييز في الحقوق والواجبات بين المختلفين في المولد والديانات وقطعت التفاضل الا بالاعمال الصالحة والاحلام الراجحة .

سلام عليك يا متشبعة بافكار الحكماء ارتضيتها منهم قانوناً تجرين عليه لسعادتك ولئن حاد بعض ابنائك بعض الشيء عنها فذلك لان سياسة المنافع والمصالح قد تخالف ناموس الحق والعدل الصالح ولان نظام بقاء

الانسب لا تاب له والتنازع في جهاد الحياة كثيراً مايدعو الانسان الى ركوب ماتحظره الشرائع الوضعية والسماوية ولا سيما في هذه العصور التي يفضل فيها كل عمل على قالب الماديات وما ذلك الا ليقر البشر بجزم وبطلوا ان الكمال الآن محال وعله لايفوتهم في مستقبل القرون والاجيال .

السلام على هذه العاصمة التي احسنت الى الشرق فيما مضى فعلمته حتى استمد منها النور فان قلنا معاشر الشرقيين ولا سيما سكان الشرق الاقرب انا نأخذ عن المدنية الغربية فانما نعني المدنية الفرنسوية وبعبارة اصح المدنية التي تنبعث اشعتها من باريز ومن طريقها وبلغتها واسلوبها تيسر لنا ان نستطلع طلع سائر مدنيات الارض .

سلام عليك علمت وعلمت فما احسن العلم والعمل اذا اجتمعا . وما احلى الاخلاص والشعور بالواجب .

سلام عليك سذت للغرب سنة التضامن والتكافل . والعطف على البائسين والمساكين . والرفق بالضعفاء والعاجزين . والاخذ بايدي المقهورين والعاثرين . والانتصار للمظلومين من الآدميين خصوصاً اذا كانوا من طبقة اوربية

سلام عليك انت العاصمة التي تركت القصور الفخيمة التي عمرت بدماء الامة مباحة للناس يدخلونها وكانت بؤرة المظالم والمغارم . ومنبعث الشهوات والاهواء . ولطالما جاورت جوانبها بالدعاء الى السماء من حيف الكبراء ايام كان يوقع احد ملوكها وهو على سرير نومه توقيعاً واحداً يترك من العدمئة الف اسرة في هذه البلاد تبيت جائعة عريانة لايمر بما يجمع قصراً له او يدفعه لمحبوبته صبرة واحدة فما اضناك الظلم والعنت قمت تجلين من تلك القصور الفاسقة متاحف عامة ومن دور الظلم والظالمات مجالس

عدل وعلم ونور .

سلام عليك فخلدت اعمال من خلفوا تلك هذه المدنية واقمت تماثيلهم ونصبهم موقع الاحترام والاعظام وتوقرت على تكرير اسمائهم على المسامع كل يوم الوف الالوف من زارت تمثاليهم مهنئاً ان يأتي بعدهم من الابناء والاحفاد .

سلام عليك يابلد ديكارت و كونت وروسو وفولتير وديدرو وسيمون ومونتسكيو وهوغو وبلسكال ورلان ومئات اضرابهم ممن بذلوا حياتهم في حسن خدمتك فلم تنس القائم عليك بعد مماتهم .

انت ان خجلت من ذكرى الحروب الصليبية وديوان التفتيش الديني ومذبحة القديس برتلماوس ومقتل الفيلسوف فيفاني وجنون نابوليون وغير ذلك من الاعمال البربرية في عصور الظلمة فان سكانك يفاخرون وحق لهم الفخر بانهم احفاد ثورة سنة ١٧٨٩ قاموا من الاعمال المشكورة في عصور النور مايلغي للماضي الاقليل ان الحسنات يذهبن السيئات .

السلام عليك باريز اجمل عواصم العالم واغنى البلاد ببدائعها الطبيعية والصناعية واجمعها لمرافق الراحة والرفاهية . انت انت اليوم عاصمة مئة مليون من البشر اربعون في ارضك وستون في المستعمرات بل انت بما فيك من المزايا عاصمة معظم الخافقين لاسباب هنائك وصفائك وتعيك ونعمائك وتفردك من بين العواصم بسلامة الذوق وسلامة الابداع ووفرة العلماء والباحثين والكاتبين والشاعرين والقصصيين . فكل شيء في باريز مبذول حتى لتمالك النفوس من اقصى مايتصور الفكر من الفضيلة الى آخر مايجول في خاطر او يحوم حوله خيال

فباريز ولا مراء جنة ارضية جمع فيها موجدوها — استغفر الله — ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

باريز بعد الغروب

١٠

ان فاخرت باريز بمعارضها التي اقامتها في اوقات مختلفة لتلفت اليها الانظار وتستفيد الفخار والضرار فان لها كل ليلة معارض لاتختلف عن السابقة الا في كون البقعة التي تقوم عليها هذه اوسع مجالاً واكثر جمالا .

يصرف الباريزيون او معظمهم نهارهم في الاستعداد لليلهم وكثيرون لايعملون الا في الليل ويصرفون النهار في جمع قواهم وادخار احسن ماعندهم لما بعد الشفق فهم لايجعلون الليل لباساً والنهار معاشا كما في عـادة معظم الامم بل ان الحركة عندهم تبدأ قبيل الظهر بطيئة ولا تزال تقوى حتى تغيب الشمس وتطلع بدلها شموس واقمار .

ترى المدينة في النهار عابسة مظلمة على كثرة جاداتها الكبرى وشوارعها المغروسة على جانبيها بالاشجار غالباً وطرقها وازقتها وساحاتها العامة وفي هذه الاماكن تشهد مجالي الحسن والاحسان ومائقنست في ابداعه العوامل وتلطفت في روائه الافكار والانامل .

على تلك الارصفة تناجي النفس رب النجوى قائلة اللهم هل خلقت باريز من معدن اللطف والظرف لتكون مثالاً من جنة ارضية فخصصت اهلها بالاستمتاع بنعمة الجمال حتى لكأنك شطرته شطرين شطر وقفته على الباريزيات وشطر وزعته على سائر بنات حواء .

ان امتاز الفرنسيس بالابتداع في الصناعات فقد امتازوا ايضاً بنضرة الوجوه . والى باريز تحمل هذه الامة ولا سيما في فصل الشتاء افضل ما عندها من محاصيل الكمال والجمال ايام تكون ام هذه القرى مقصد السائحين والمتجرين والطالبين والعالمين والسياسيين والخاملين وتغص دوائرها واداراتها وملتقى مجالسها العلمية والسياسية والاجتماعية .

وزيد الوجوه بهجة في باريز تمدن القوم في الازياء وتفاليهم في التبرج والزينة تمادياً مهما تقدم عند غيرهم لا يزالون مصدره ومورده واساتذته وسدنته . ومظاهر الازياء تجلى في باريز بعد الغروب على الجادات والشوارع والطرق والساحات وفي المركبات والسيارات وحوافل الخيل والكهرباء والسكك الحديدية فوق الارض وتحتها وفي دور التمثيل ومسارح اللهو والطرب ومحال الفرج والحانات والقهوات والمطاعم والفنادق ويزيدها فتنة للناظرين ما اعتادته الباريزيات الا من عصم ربي من ابداء زينتهن لغير المحارم اكثر من ابدائها ليعولنهن وذوي قرباهن ورأين اصواتهن في الكلام رنيناً تحسبه من مزامير داود وتستطيبه اكثر من تغريد العندليب وهناك الفتنة بعينها والفتنة الشد من القتل ونعوذ بالله تعالى من فتنة القلب وفتنة العين

ولعل هذه الخيالي في الحرية المفرطة حملت الكثير من الغرباء على نزول باريز فيشهدوا فيها مالا يشهدونه في غيرها وترتج منهم اللجات بالملايين والكرات بحملاً ما فقه احد ملوك روسيا وقد قيل له ليس من اللائق ان تضرب ضريبة على محال الاطعمان في الشوارع فقال « الريح لا رائحة له » وارسلها مثلاً والفرنسيس يقول الافرنج ايضاً « الغاية تبرر الواسطة » فما دامت الغاية الكسب فلا بأس من الاحتيال اليه ومن اجل هذا تظهر باريز بعد

الغروب اقصى الغضبة واقصى الرذيلة والناس معهما وما يختارون

بعد الغروب تجمر سيء باريز اندية الخطابة والمحاضرة والعلم وتلقى فيها من الفوائد ما يباع الاذهان عفواً صفواً ويفيض معين البيان ويبدو حدق يد الانسان ويسعى العالم الى تعليم الجاهل في ساعة ما تعب في احضاره الايام والاعوام فائدة الخطب والمحاضرات ممروضة . ودروس الفضائل عامة موزودة .

بعد الغروب يعمل معظم الكاتبين كتبهم والشاعرين اشعارهم والمؤلفين مؤلفاتهم والمخترعين اختراعاتهم والصانعين صناعاتهم كأن الافكار لا تنطلق من عقالها والايدي لا تعمل اعمالها الا عند ما ترقد عيون البشر او كأن الزهرة ربة الجمال لا تحب ان تلي على من عم احوج الناس الى ظلمتها الا من الليل كالكوكب الزهرة لا يبدو في مطلع الافلاك الا مع الدجى . ولذا يحرص اهل باريز ان يجعلوها بعد غروب الشمس مجمع الانس ورياحة النفس

وكان الباريزيين وهم العارفون بتقسيم الاعمال عز عليهم ان تمضي ساعة في بلدهم بتقطع فيها العاملون عن اعمالهم فخصوا النهار ببعض الصناع والنهار والعمل والساعات والليل بالمفكرين والمفكرات والمؤانسين والمؤنسات والمغنين والمغنيات والخمارين والخمارات . . . حتى لا تنقطع حركة ولا يقف دولاب عمل وكان بذلك الحظ الاوفر للمرباء فلا يدخل على الغريب ملل من تغير المشاهد ولا يفتأ من الفجر الى الفجر ان احب يستمتع بالمشاهد العجيبة ويتملى ويأنس و يتنزه

يقول الباريزيون ان بلدهم مبارك على الغريب اكثر منه عليهم وانهم مضطرون ان يواصلوا السير بالسرى ويكدحوا الليل والنهار ولكن هذا قول

من ملك شيئاً فزهد فيه والروح ترتاح الى الثقل اما الشرقي الذي يرى اهل باريز ويخالطهم على اكثر مادبروه لراحتهم ورفاهيتهم فانه يعجب لمن يسأكنهم زمناً كيف ترضى نفسه ان يختار عن باريز بلداً آخا يعجب لاهلها كيف لا يأسفون على مفارقة الحياة اضعاف اضعاف ما يأسف غيرهم عليها ومن قال بان دواعي الراحة تطيل حبال الآجال يستعظم على اهل باريز ان لم يعمروا اكثر من عامة الخلق وعندهم النعيم المقيم والخير العميم

الرسالة العذراء (١)

في موازين البلاغة وادوات الكتابة كتب بها ابو اليسر ابراهيم بن محمد بن المدبر

بسم الله الرحمن الرحيم

نبّهك الله بالحكمة ذهنك، وشرح بها صدرك وانطق بالحق لسانك، وشرف به بيانك، وصل الي كتابك العجيب الذي استفهمتني فيه بجوامع كلك جوامع اسباب البلاغة، واستكشفتني عن غوامض آداب ادوات الكتابة، سألني ان اقف بك على وزن عذوبة اللفظ وحلاوته، وحدود جزالة المعنى وجزالته، ورشاقة نظم الكتاب ومشاكلة سرده، وحسن افتتاحه وختمه، وتنزيل فصوله، واعتدال وصوله، وسلامتها من الزلل، وبعدها من الخطل، ومتى يكون الكاتب مستحقاً اسم الكتابة، والبليغ مسمى لمعاني البلاغة، في اشارته، وامتدارته، والى اي ادواته هو احوج، وبأي آلاته هو اعمل اذا حاول فحص الحق، ودعي الى السبق، وفهمته وانا راعٍ لك ايدك الله من ذلك ما يجمع اكثر شرائطك، ويعبر عن جملة سؤالك، وان طولت في الكتاب وعرضت واطنبت في الوصف واسهبت، ومستقص على نفسي في الجواب كي

(١) منقولة من مجموع قديم من كتب الشيخ طاهر الجزائري وهي مما كتب فيه ب في القرن الرابع او الخامس